باب التربية والتعليم

﴿ أميل القرن التاسع عشر ﴾

(١٧) من هيلانه الى اراسم في ١٥ ابريل سنة ١٨٥٠

قد تمّ لي القرار في المنزل الذي استأجرته. وفي صباح اليوم قدم على احدى السفن التجارية خادمانا الزنجيان قوبيدون وزوجته جورجيه آتيين من فرنسا حيث كانا تخلفا عني لحزم أمتعتنا فأسكنتهما رواقاً ملاصقا للمنزل من ناحية البستان وأنا الآن أساعدهما في نفض كتبك وترتيب مجموعاتك

لم يكد يستقر هذا الزنجي البار حتى وجّه عزيمته الى أعمال شتى فصرح لي ان في نيته قلب أرض البستان وبذر الحبوب وغرس أنواع من النبات فيها الى غير ذلك من الاعمال وقال لي انه لا لوم عليه اذا أنتج بستاننا عما قليل أطيب فواكه البلد وأجود بقوله وهو يذكر سابق اشتغاله بزراعة الارض أيام رقه وهو فرح فخور انه ينبعث الى العمل بسائق الشكر والاقرار بالنعمة بعد ان كان لا يلجئه اليه الا خوفه من أليم الضرب بالسوط ويقول ما أشد اتقان ما سيصير اليه شغلي فقد أصبحت مالكا لنفسي منفلتاً من ربقة الاستعباد

لا أخفي عنك ان المقارنة بين اسمه والمسمى كانت مدعاة الضحك ومثار الاستغراب وان سكان مرازيون يضحكون منه لانهم يستصعبون التوفيق بين معنى العشق (الذي يدل اسمه (قوبيدون) عليه فانه في أساطير اليونان اسم للعشق الذي هو ابن الزهراء الاهة الحسن) وبين مشفري ذلك الزنجي الغليظين وأنفه الافطس وجلده الاسود واني لاخشى ان يكون هذا الاسم

لم يطلق عليه من مواليه السالفين الا تهكماً وسخرية ولكني على رأيي هذا لم أجسر ان أكلمه في تغييره فاني لو فعلت لكان هذا اعترافاً مني له بانه دميم أو تصريحاً بان البيض لاينصفون الافريقي مثله

أنا في هذا البلد أعيش بمعزل تام عن الناس فلا أتردد الا الى دار السيدة وارنجتون حيث أصادف أحيانا بعض سيدات من بنزانس أو من ضواحي مدينة لوندره والذي يشغلني في اختلاطي بهؤلاء السيدات هو الطريقة التي تجري عليها الانكليزيات في تربية أولادهن واني مجتهدة بملاحظتي اياهن في تعلم أخلاق وأعمال الامومة

ان سكان كورنواي وان صح انهم ليسوا من نسل الانكليز السكسونيين لما يقال من انتسابهم الى فصيلة من الصقالبة ولما أراه بينهم وبين البريتونيين (١) من المشابهة الكبرى في لون الشعر وملامح الوجه الا ان بين هؤلاء السكان عدة من الاسر والعائلات الانكليزية ومن كان من الباقين غير انكليزي الاصل فقد تخلقوا باخلاق تلك الامة التي ألحقهم بها الفتح وسرت فيهم عاداتها على تفاوت في ذلك قلة وكثرة

انظر كيف يستقبح النساء في انكلترا طريقة تقميط الاطفال ويستهجنها ويقول الوالدات منهن استهزاء بنا اننا ندخل أطفالنا في أكياس رثاء الناس حتى اذا سنحت لنا الفرصة علقناهم على مسامير في الحائط واكتفينا بذلك مؤنة ماتستلزمه حالتهم من العناية والرعاية اذا كانوا غير مقمطين . وانما ساغ لهن ان يقلن ذلك لان أطفالهن يتمتعون بتمام الحرية في حركاتهم لانهن يلبسنهم ثوبا طويلا من الصوف اللين (فانيلا) فيكونون فيه مالكي

(١) أهل بريتانيا وهي أحد أقاليم فرنسا

أنفسهم على قدر مالهم من القوى الصغيرة في ذلك السن واني والحق أقول معجبة بهذه العادة لاني كثيرا ماسائني رؤية الاطفال يربطون وتحصر أجسامهم في لفائف تضم أطرافها بالدبابيس فيكونون كجثث محنطة لفت بشرائط من الكولان »١«

الاطباء الانكليز كافة يمقتون مايجعل في أثواب الاطفال من الحبال التي يعتمدون عليها في دبيبهم وما يتخذ لهم من الدراجات الخيزورية (٢) والآلات المتدحرجة لاجل مساعدتهم على الدرجان ويؤكدون أن استعمالها مما يؤدي الى تشوه صدر الطفل واعوجاج ساقيه بما يستلزمه ذلك الاستعمال من وقوع ثقل الجسم كله على العقبين

بل ان الدكتور وارنجتون قد بالغ في الامر حتى قال بوجوب تعويد الطفل من نعومة أظفاره على ان تكون أعماله كلها عن قصد وعزيمة ولهذا يجب ترك اقامته وتمشيته بالآلات الصناعية حال عجزه عن ذلك بنفسه لأن فيه تضليلا له في فهم مقدار قواه فانه حينئذ يتوهم انه يدرج بنفسه والدارج في الحقيقة هي تلك الآلات التي يعتمد عليها وهو وهم يصحبه طول حياته ويظهر أثره في عامة شؤونه

يتعلم الاطفال هنا الحركة والانتقال بانفسهم فانهم يتركون وشأنهم في التحرك فيتدحرجون ويحبون على بساط يفرش لهم وينالون من القوة تدريجا مايمكنهم من الوقوف ثم يخاطرون بانفسهم فيخطون خطوات مستعينين فيها بالاعتماد على مايكون قريبا منهم من أثاث المكان فاذا اضطربوا لضعفهم تلقتهم أذرعة أمهاتهم فمنعتهم من الوقوع

(١) نبت البردى (٢) الخيزورية المصنوعة من الخيزور وهو الخيزران

هـذه الطريقة التي هي سنة الله في خلقه وليست سوى التخلية بين الطفل وعمله هي أيضاً أكثر انتشاراً في أمريكا منها هنا فقد سمعت بمناسبة الكلام فيها ان سائحاً انكليزيا صادف يوماً وهو في الولايات المتحدة بامريكا صبيا في الثانية أو الثالثة من عمره يزحف بيديه ورجليه على حرف قنطرة مدعثرة يتدفق من تحتها سيل صخب فارتاع لفحوم هـذا الخطر المتهور في الخطر فاسرع في التماس والدته فاصابها جالسة مطمئنة على حافة مجرى هذا السيل نفسه تغسل ثيابا فمثّل لها مارآه من حالة ولدها وهو فزع متخوف عليه الهلاك فما كان جوابها الا ان قالت غير مدهوشة ولا منزعجة ان الصبي معتاد على العناية بنفسه ووقايتها واني اذا عدوت اليه لابعاده عن مظنة التهلكة مظهرة له الجزع والهلع كان ذلك ولا شك مذهبا لرشاده مضيعا لسداده فلما سمع السائح الاجنبي منها هذا القول اقتصر على مراقبة الطفل لينظر ماذا يكون من أمره فرآه قد مكنه مابذله من قواه من تنكب طريق الهلاك .

انا ان سيقت لي الدنيا بحذافيرها على ان أرى صبياً لي في هذه الحالة مارضيت ولكن تلك المرأة لم تخطئ خطأ بينا في تعريضها ولدها للخطر على مارأيت كما قد يسبق الى الذهن بل انها فهمت فروض الامومة الحقة أحسن مما فهمناها فان هذه الطريقة في سياسة الاحداث من بداية نشأتهم هي سبب مانراه في سكان أمريكا الشمالية من ميلهم الى المخاطرة وشغفهم بالاستقلال

الوالدات الانكليزيات كافة يتمنعن من تغطية رؤوس أطفالهن ولا يقبلن أن يضعن عليها القبعات المحشوة بالوبر التي هي تيجان الضعف . نعم انه قلما يعترض عليهن بما في ذلك من تعريض الاطفال للخطر لما يتوقع من

سقوطهم ولكنهن يدفعن هذا الاعتراض أولا بان وقايتهن لهم واهتمامهن بامرهم يقومان مقام الوسائل التي تتخذ عادة لوقايتهم وثانيا بان الطفل كلما شعر بقلة أسباب الوقاية من جانب الغير زاد احتراسه وتوقيه فيلزم ان يربي فيه من صغره خلق الاستقلال بحماية نفسه والدفاع عنها لا ان يعول في حفظه على بعض طرق احتياطية لاتغني عنه شيأ وهي دائما مبنية على الوهم والخطأ قل ذلك أو كثر . اذا شاهدت الطفل الانكليزي وهو مكشوف الرأس والذراعين والساقين خلته هرقلا(١) صغيرا وان كان لا يخنق الافاعي — لانقطاع دابرها من جزيرته — ولكن قد بدت عليه مخايل الجسارة وسمات الجراءة والاقدام . أني يوجد دم اغزر مادة من الدم الانكليزي وأي نسل أقوى من نسل الانكليز؟ ان معايب الجسم وأنواع تشوهه هي في غاية الندرة هنا ولا أخالك تصدقني اذا قلت اني الى الآن لم يقع بصري على أحدب أليس جمال النسل حجة قائمة تنطق بافصح لسان مؤيدة مذهب الحرية الذي جرى عليه جيراننا في طريقة تربية أولادهم؟ المهد المذبذب الذي هو من لوازم الاطفال عندنا قليل الاستعمال جدا فيما وراء بوغاز المانش (اي بلاد الانكليز) وانما يوجد للاطفال سرر كثيرة ليست من الاراجيح التي تهز باليد كالتي عندنا فالانكليز عموما يسترذلون عادة هز الاطفال ويقولون انها ذريعة الى تعويدهم على ان لا يناموا الا بوسائل صناعية . تعلمهم هذه العادة ان يلتمسوا راحة أبدانهم عند غيرهم على حين انه يلزمهم ان لا يطلبوها الا من أنفسهم ومن الفطرة التي فطرهم الله عليها . نحن لا نهتم بما ينشأ عن اتخاذ تلك الوسائل الباطلة الموافقة لرغائب أطفالنا من الآثار السيئة في طباعهم ولا نطيل النظر

(١) هرقل هو ابن المشترى على مافي أساطير اليونان وهو من اشهر الشجعان طار صيته بعماله التي منها خنق الافاعي

في ذلك . ان الطفل قبل تميزه وتمايز أنواع الوجدان فيه يكون في فطرته من الاحتيال مايمكنه من الانتفاع بضعفه مع مراعاة من يكتفونه له . فكم من أناس انقضى دور طفوليتهم وهم لا يزالون في حاجة الى الاهتزاز طول حياتهم فلا تعرف لهم نوما ولا يقظة بل تراهم في غفلة عن أنفسهم تحركهم عوامل العالم الخارجي فيرون في أحلامهم وخيالاتهم انهم يهتزون وكان الاولى ان تصيح بهم الشهامة ليهبوا من رقادهم ويشمروا عن ساعد الجد للعمل والمغالبة في ميدان الحياة

أخشى ان يكون كل كلامي هذا قريب الشبه بالوعظ الديني على اني لم آت به من تلقاء نفسي بل اني سمعته بما يقرب من عبارتي من قابلة وقور صديقة للسيدة وارنجتون مشهورة هنا بان قولها حجة في فن التربية . فان التربية في انكلترا هي أول علم يتلقاه النساء .

اني اخال الولدان في انكلترا أقل بكاء منهم عندنا فهل أنا واهمة في ذلك ؟ كلا لا وهم ولا خطأ فان بكاء الطفل انما يكون لتألمه من عارض يلمّ به وان مامنحه هنا من الحرية وما حيط به من ضروب العناية الصحية وماسنّ له من قانون الغذاء كل ذلك يساعد على حفظ صحته ونموها . اذا كان للانكليز عناية كبرى بترقية نسل العجاوات حتى لا تجد أجمل من خيلهم ولا أحسن من كلابهم فكيف مع هذا يظن انهم يغفلون تربية الآدمي الجسمانية

الوالدات الانكليزيات يرضعن أولادهن بانفسهن متأسيات في ذلك بملكتهن ومن هنا كان لفظ المرضعة عندهن لا يؤدي معنى هذا اللفظ عندنا فلا يراد به الا المرأة التي تقوم على الولد في تربيته وحينئذ فالمراضع عند جيراننا ينقسمن الى قسمين متمايزين كل التمايز . أولهما الحاضنات ويسمين

عندهم بالمراضع الجافات ثانيهما المراضع الحقيقيات ويوصفن بذوات البلال(١) الا ان هؤلاء أقل عددا ممن عندنا ولا يرجع اليهن الا عند الضرورة الملجئة حيث تكون الام في غاية العجز عن ارضاع ولدها بل ان كثيرا من الانكليزيات يفضلن القام ولدانهن زجاجات اللبن على القامهن أثداء المراضع المستأجرات وانهن ليوسعننا لوماً على تفريطنا في هذا الامر ولا اخالهن الا محقات في ذلك فكم من القرنساويات المترفات من يتركن ولدانهن الذين كان يجب ان يكونوا أعز شيء عليهن في هـذا العالم ويكلن ارضاعهن الى نساء من أهل القرى جافيات الطباع قذرات لا يرضينهن مساعـدات لهن في التزين والتحلي

النظافة عند الانكليز هي في حق الاطفال أساس تدبير الصحة وهي عامة كل الطبقات حتى الفقراء فانهم يغسلون أولادهم في كل صباح يشدد الاطباء هنا النكير كما يفعله رصفاؤهم في البلاد الاخرى على لبس النساء الغلائل المحزوقة (الضيقة الضاغطة) فلا يصغي لهم أحد فالصينيات يتلفن أقدامهن بالنعال الضيقة ونحن نتلف قدودنا بهذه الغلائل المحزوقة جريا على ما حكمت به العادة فرارا من السمن وبروز البطن عند الحبل على انه يجب الاعتراف بان الانكليزيات أقل منا عناية في اخفاء حبلهن بل انهن يفتخرن به فقد شبهت احـداهن المرأة الحبلى بالشجرة المثمرة فقالت مثل المرأة في سبيل انشاء الاسرة كمثل الشجرة تحمل ثمرتها

الا تذكر اننا في ايام الهناء الخاليـة لما كنا نمشي في منتزه التويليريا او في حديقـة لوكسمبورج كثيرا ما نألمنا لرؤية أولئك الاحداث شهداء

(١) البلال بكسر الباء ما يبل به الحلق من الماء أو اللبن

البدنة الذين يخرجهم أهلوهم متبرجين بالزينة فتلابسهم حاضناتهم ثيابهم وزينتهم من القدمين الى الرأس قبل خروجهم ويكون من وراء ذلك ان الطفل الحسن البزة لا يعتبر طفلاً ولا يكون المقصود من اخراجه تسليته وترويح نفسه بل تحصيل اللذة لغيره فاذا أولع بالبحث في الارض بيديه أو جرى في مهب الريح فعبثت بتناسق ذوائب شعره الجعد الجميل وبخ وعنف على انه وسخ نفسه ولم يمتثل ما أمر به من السكون فكأن ذويه لا يرومون تنزيهه وانما يريدون عرضه على الانظار . ليس الذي يقصد أولاً وبالذات من تلك النزه هو امتاع الطفل بحرارة الشمس وهواء الفضاء اللذين يقويان صحته وينميان أعضاءه بما يكون معهما من الرياضة والحركة بل ان المقصود منها هو اتخاذه ألعوبة أنيقة يطأمن بهاؤها ورونقها من نخوة الامهات الاخريات ويكسر من زهوهن فاذا رأت الام بنيتها ترفل في ثوب من الخز مزين بالطراز المثقب (التانتلا) قالت في نفسها آه لو رأتها السيدة فلانة أو السيدة فلانة لانشقت مرارتها غيرة وكمدا . الى هنا أمسك عنان القلم عن الاسترسال في هذا الموضوع فاني قد أوغلت في الشرح على ما يظهر لي

النساء الانكليزيات يحملن اولادهن ايضا بفاخر الثياب ويخرجن بهم الى المتنزهات بل انهن يبالغن في ذلك احيانا فيصلن الى حد الافراط غير ان هذا يكون لا في ايام الآحاد . اما الاطفال الذين ينشأون في القرى فيندر ان يأنسوا من انفسهم الحاجة الى الخروج طول الاسبوع لان التائهين عليهم يخلون بينهم وبين اللعب في حديقة البيت والمرح في حر الشمس وعلى البنات منهم دروع قصيرة وعلى البنين قمصان خفيفة من الصوف ولا يبيحون لانفسهم التعرض لهم في الاعياد . اما نحن فيحملنا هوسنا بتدبير كل شيء وادارته الى التداخل في تنزه الاطفال واستراحتهم بسياستهم في ذلك وضبطهم بقواعد لا يتعدونها .

لم يغب عن ذاكرتك اننا كنا يوما في قاعة السيدة ... جالسين معها فدخل علينا ولدها الكبير وهو صبي كان وقتئذ في الرابعة أو الخامسة من عمره تلوح عليه سمات السماجة والتفت الى والدته فسألها قائلا : أماه ماذا ينبغي أن أفعل لاتسلى وأروح نفسي ؟ أنا لاأزال أتذكر اندهاشك لهذا السؤال وما جرى من المزاح والضحك بيننا بسببه . على ان هذا الصبي المسكين كان له حاضنة تتقاضى أجرة كبيرة جدا ولذلك أحيل عليها لتسليه وكان يظهر من حالها انها في غاية الضجر من وظيفتها .

ان في بعض الاسر الانكليزية أيضا حاضنات الا ان الذى عرفته بالمشاهدة من أمرهن انهن يسسن رعيتهن الصغرى كما تسوس ملكة انكلترا رعاياها أعنى بذلك انه لايكاد يكون لهن سلطان عليها خصوصا فيما يتعلق بانواع اللعب وضروب التسلي . يستدل جيراننا على وجوب اطلاق الحرية للاطفال في ألاعيبهم بادلة سديدة على ماأعتقد فيقولون ان الكبار في اشتراكهم مع جماعة الاحداث الفرحين المرجين في تلك الألاعيب يرجعون دائما الى أذواق أنفسهم أكثر من رجوعهم الى أذواق أولئك الاحداث فيغفلون بذلك اعتبار رأيهم في مسألة لامرية في ان موضوعها القيام لهم بحقوقهم وهذه الحقوق ليست من الكثرة بحيث يسلم المطالب بها من وخز وجدانه اذا هضم منها شيأ . ولهم حجة اقوى من هذه وهي ان حرمان الاطفال من الاختيار يميت فيهم روح الاقتدار (الابتداع والانشاء) والانبعاث النفسي الى العمل فاننا به نمحو آثار أنواع ميلهم الفطري ونقيم ميلنا مقامه فهل هذا هو الوسيلة الى تربية طباعهم ؟ الطفل اذا كان نشيطا صحيح الجسم سهل عليه ان يستقل بنفسه في التنزه والتروح فاذا جرى على ذلك اعتاد ان لايكون تابعا لغيره في لعبه ومرحه . ألم تكن عادة عدم الاستقلال عند الاطفال فيما ذكر هي سبب ماكان يعتور أولئك الملوك العابرين من الكدر والضجر فيضطرهم الى ان يجعلوا في حاشيتهم من المجانين من يضحكهم .

يبدو لمن يدخل بيتا انكليزيا لاول وهلة خصوصا اذا كان متسلي لايزال متأثرا بالافكار الفرنساوية أن مابين أهله من العلائق والمعاملات عليه سمة الفتور والاحتشام فيرى الوالدين فيه أقل تملقا لاولادهم وأرغب عن ملاطفتهم منهما عندنا وكذلك يرى الاولاد أقل أنسا بالاجانب ومباسطة لهم — وليعلم ان كلامي هذا انما هو على جملتهم فلا ينافي ان يكون منهم من هو على غير هذه الصفة — فهل هذا الظاهر من فتور العلائق وتراخيها منشأه طبع الامة الغريزي او أنه مقصود جريا على مقتضى مذهب او قاعدة في التربية ؟ اليك رجع صدى حديثي في هذا الموضوع وحديث القابلة الجليلة

صاحبة الفضل علي خصوصا في الارشاد والتعليم . قالت ان الانكليز يجتنبون اظهار كثير من الملاطفة والمراعاة لاولادهم حتى لايكون عليهم للمزاعم السخيفة سبيل . اما نحن فان الطفل عندنا يعامل مع الارتياح معاملة المرأة فكلاهما يعوّد على ان يحب اكثر مما يحب . هذا النوع من المعاملة ينتج الفتجات من النساء والمارمين والعوارم (١) من الاطفال . المحبة تدعوا الى المحبة اما انواع التملق والمخادعة فانها تنمي جراثيم الاثرة والزهو . فالطفل الذي يتزلف اليه والداه كما يتزلف الناس الى العظماء لنوال الحظوة لديهم — وهذا هو شأنهما معه في الغالب — لايلبث ان ينتهي به الامر الى اعتقاد ان الناس مدينون له بكل شيء وانه هو ليس مدينا لاحد منهم بشيء

هذا مابدا لي من الملاحظات نصصته لك على غير موقنة بانه سينال حظا من اطلاعك وما ذا أزيدك عليه ؟ حقا لم يبق عندي ماتحفك به سوى ان مثالك العزيز لايفارق خيالي وحبك الراسخ لايزايل قلبي . قد رتبت بيتي فجعلته لسكنى اثنين كأني كنت ستحل به غدا ونظمت مكتبك ايضا فجعلت مافيه من الكتب والاوراق كلا في موضعه وهو الآن مشوق اليك فعسى ان لايطول عهد خلوّه منك . هذا امل ارجوا ان لاأحرم منه فانه لولاه لقضى علي الفراق . قد علقت رسمك في مطعمنا الصغير في ساعات الاكل اجلس للمائدة مواجهة له فاوى لصورتك فيه نوعا من الحياة ويخيل لي حينئذ اني اتغذى معك وجها لوجه كما كنا ايام القرب والاغتباء . مالولعني بالنظر الى هذه الصورة فلا بد ان ولدنا سيأتي مشابها لك والسلام في الختام

حاشية — اسالك على ذكر هذا الوالد ماذا تريد ان تسميه ؟

الاخبار المتنوعة

الاسطول الفرنساوي — لما علمنا بطواف هذا الاسطول بسواحل سوريا خطر لنا ان ذلك لغرض سياسي ثم جاءتنا الانباء بزيارة اميره (الاميرال فونيه) للبطرك الماروني في جونيه عظمى حواضر البحر في لبنان وماكان له من الحفاوة والاجلال من اللبنانيين وانه لما الم الاسطول بحاضرة طرابلس الشام انحدر اهالي زغرتا نساء ورجالا اليها وزاروا الاسطول جميعا ورحبوا بمن فيه اعجب ترحيب ... ولا بد ان يكون هذا عن تواطؤ ومداولات فقد مر على اللبنانيين حين من الدهر وهم الى العثمانية اقرب منهم

(١) العوارم جمع عارمة والعارم الفاسد الشرس